الشعر في مكة والمدينة في القرنين السابع والثامن الهجريين

دراسة موضوعية وفنية

«رسالة دكتوراه»

للباحث مجدي بن محمد خواجي

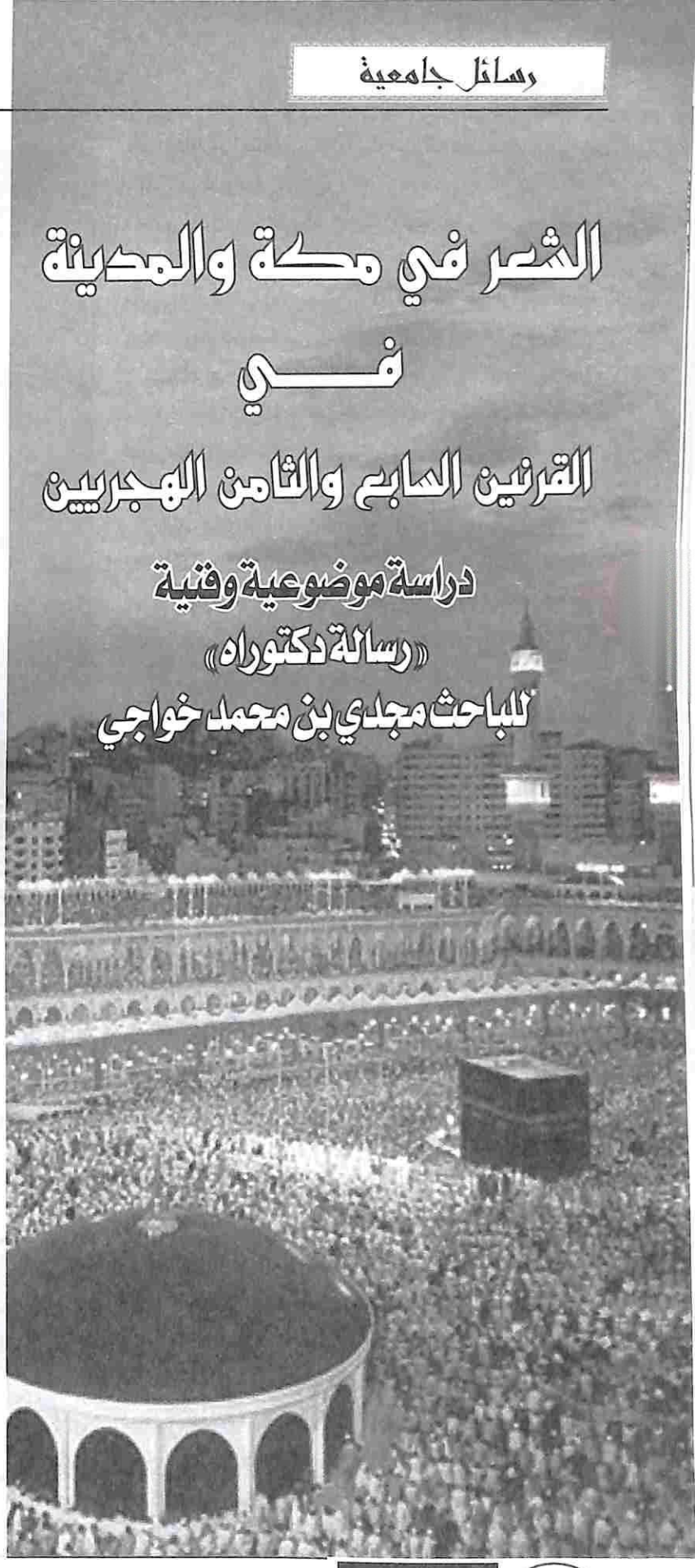

تناولت هذه الدراسة الشعر في مكة والمدينة في القرنين السابع والثامن الهجريين، وانطلقت لتلقي الضوء عليه من الناحيتين الموضوعية والفنية.

بدأت الدراسة بتمهيد كشفت فيه عن أهم معالم الأحداث السياسية، والنواحي الاجتماعية، والحياة الثقافية في مكة والمدينة عبر هذين القرنين.

وفي الفصل الأول كان الحديث عن مصادرالشعر، وقد قسمت إلى مجموعات بحسب موضوعاتها الأصلية فشملت المصادر التاريخية، وكتب التراجم، وكتب الرحلات، ومؤلفات الشعراء،والمصادرالأدبية، ومصادرأخرى، ورتبت كل مجموعة ترتيبا زمنيا يستند إلى وفاة مؤلفيها.

ولتقديم دراسة وافية لكل مصدر اعتمد البحث خطة تضمنت تعريفا موجزا بالمؤلف، وعرضا سريعا يشمل موضوع الكتاب والدافع إلى تأليفه، ومنهجه، ومصادره، وقيمته، ثم الالتفات بعد ذلك إلى الجانب الأدبي فيه لبيان ما تضمنه من مادة شعرية، وأهم من عرض لحياته من الشعراء، أو استشهد بشيء من شعره.

أما الفصل الثاني من هذه الدراسة فقد أشار إلى أهم العوامل التي أثرت في الشعر في مكة والمدينة، وقد تبين أن من أقوى تلك العوامل : المجاورة في مكة والمدينة، حيث انعكست هذه الظاهرة بكل جوانبها على الشعر في نواحيه الموضوعية والفنية،كما أن المواسم الدينية تعد عاملا آخر ساعد على نهضة الشعر وظهور معاني المناجاة والتضرع في الشعر الديني.

ويمثل ازدهار الحركة العلمية والتأليف في هذه الفترة عاملا ثالثا أسهم في تطور

مدارك الشعراء ومعارفهم الثقافية، وانعكست آثاره على معانيهم الشعرية.

وأشار البحث إلى الرحلات بوصفها عاملا مهما في تطور الشعر وانتعاشه في هذين القرنين، فقد رحل مجموعة من الأدباء من أقطار مختلفة إلى مكة والمدينة، وسجلوا مشاهداتهم الطبيعية والثقافية والأدبية، ونقلوا إلينا كثيرا من مظاهر الحركة الشعرية وفنونها.

ومن تلك العوامل - أيضا - الأحداث السياسية التي شهدتها مكة المكرمة والمدينة المنورة في القرنين السابع والثامن الهجريين حيث تفاعل معها الشعراء، وشاركوا في كثير من تداعياتها.

و - كذلك - تشجيع الأمراء والحكام،كما كان من أهم النتائج التي أشار إليها البحث في مجال المؤثرات العامة ظهور المكتبات العامة والخاصة في مكة والمدينة، وأثرها على ثقافة الشعراء وأفكارهم، وسوء الحالة الاقتصادية، وما منيت به مكة والمدينة في هذه الفترة من أزمات اقتصادية متنوعة.

وفي الفصل الثالث بينت الدراسة أهم الموضوعات الشعرية، وأبرز ما تناوله الشعراء من أفكار ومعان في كل غرض منها، معتمدة في ذلك على عرض نماذج شعرية وافية وتحليلها تحليلا أدبيا.

فكان المديح من أوسع الموضوعات التي احتفى بها الشعراء فأكثروا من إنشاء قصائدهم ومقطعاتهم فيه.

ويعد الغزل الغرض الشعري الثاني،الذي أكثر الشعراء من القول فيه، حتى لا تكاد تجد شاعرا لم يتعرض له بمقطوعة أو قصيدة، ويكاد ينحصر في اتجاهين : أولهما غزل تقليدي، والآخر غزل معنوي.

وقد اتضح أن موضوع المديح النبوي استأثر باهتمام مجموعة من الشعراء، ففاضت قرائحهم بالحديث عن النبي ﷺ وبيان حبهم له، واقتدائهم به.

وقد تطرقت الدراسة إلى شعر الإخوانيات بوصفه ظاهرة واضحة في تلك البيئة، وأنه يجسد العلاقات الاجتماعية فيما بين الشعراء أنفسهم، أو بينهم وبين ممدوحيهم وأصدقائهم.

ثم شعر الحنين والشوق والوصف والرثاء والهجاء والشعر التعليمي والمجاورة والمناجاة والتضرع مع الوقوف على نماذج شعرية توضح معانيها وتجلي أفكارها.

وسجل البحث في فصل الدراسة الفنية الملامح والسمات التي تميزبها الشعر في مكة والمدينة إبان هذه الفترة، حيث تناول بالدراسة والتحليل بناء القصيدة، والمعاني والأفكار، والأخيلة والصور، والألفاظ والتراكيب، والأوزان والقوافي، وظواهر فنية أخرى.

أما بناء القصيدة، فقد عرض المطالع، والمقدمات، والتخلص، والخواتيم، ووحدة القصيدة، والطول والقصر، وشكل القصيدة.

وفي الحديث عن المعاني والأفكار ذكر بأن الشعر في هذه الفترة تضمن مجموعة من المعاني والأفكار الحية التي حاول الشعراء أن يخرجوا الكثير منها في معظم الموضوعات الشعرية إخراجا جيدا، يتميز بحسن الأداء، وجمال الأسلوب، وملاءمتها لتلك الموضوعات، وتعبيرها عن عواطف قائليها تعبيرا أدبيا صادقا.

وتناولت الدراسة الأخيلة والصور، مبينة مفهوم الأخيلة والصور بين القدماء والمحدثين، ومسجلة أثر الخيال في الشعر في مكة والمدينة عبر هذين القرنين، حيث حفل بألوان متعددة من الصورالفنية التي تجسد خيال الشعراء، وقدراتهم الذهنية على استلهام المشاهد ودقتهم في رصد معالمها الحسية والنفسية. ثم الألفاظ والتراكيب، وأهميتها في الشعر، وعناية النقاد القدامى والمعاصرين بها، وما لاقته من اهتمام بالغ لدى شعراء مكة والمدينة، حيث وفقوا كثيرا إلى اختيار ألفاظهم وتراكيبهم مع معانيهم التي عرضوا لها.

وتناولت دراسة الأوزان والقوافي، أهمية الموسيقى في الشعر، وأثرها في تناغمه وانسجامه وبينت أن شعراء مكة والمدينة قد عنوا بالوزن في أشعارهم والتزموا البحور الخليلية، مع محاولتهم التجديد في الوزن من خلال بعض أشكال القصيدة كالمسمطات ونحوها.

وقد ختمت الدراسة هذا الفصل بذكر بعض الظواهر الفنية الأخرى، كظاهرة الغربة التي تسري في كثيرمن قصائد الشعراء عبر

أغراضهم وموضوعاتهم الشعرية المتعددة.

أما الفصل الخامس فقد تناول أبرز شعراء مكة والمدينة، وهؤلاء الشعراء هم : محب الدين أحمد بن عبدالله الطبري المكي (٦٩٤هـ)، وموفق الدين علي بن محمد الحنديدي (٧٠٧هـ)، ويحيى بن يوسف المكي (٧٨٢ هـ).

وقد تناولت الدراسة كل واحد من هؤلاء الشعراء على حدة، وفق خطة متكاملة تعتني بدراسة حياة الشاعر، وتكشف عن موضوعاته الشعرية، وتبرز خصائصه الفنية.

وكان الحديث في الفصل السادس عن الشعر في مكة والمدينة في ميزان النقد، وبدأت الدراسة في عرض آراء النقاد القدامى بفكرة عامة عن النقد في القرنين السابع والثامن الهجريين،موضحة أن الحركة الشعرية لم تحظ بعناية جادة من قبل النقاد، إذ انشغلوا بمسميات المحسنات البديعية التي انتشرت في ذلك العصر، دون الالتفات إلى تمييز ذلك الشعر ونقده، وبيان جوانب الجمال والملاحة فيه، ثم اجتهدت في استخلاص آراء ومقولات لكثير من متذوقي الأدب عرضوا فيها للشعر في مكة والمدينة، وانتهت إلى أن مجملها يشيد بذلك الشعر،ويفصح عن قيمته الفنية.

ثم انتقلت إلى الحديث عن آراء النقاد المحدثين، وذكرت بأنه ليس هناك آراء نقدية موضوعية توجه بها نقادنا المعاصرون نحوالشعر في هذين القرنين، وإنما إشارات سريعة وعابرة كانت لبعض الدارسين الذين تناولوا الشعر في الجزيرة العربية عموما والحجاز على وجه الخصوص، وقد لمست في مقولاتهم الأدبية وتعليقاتهم النقدية ما يؤكد آراء النقد القديم من استحسان وإشادة بمادة الشعر وبمهارة مبدعيه من شعراء مكة والمدينة.

وكانت نهاية المطاف أن ختمت الدراسة بنقد وتقويم لتلك الآراء مجتمعة تبين فيها أن الشعر في مكة والمدينة إبان هذه الفترة استطاع أن يحافظ على أصالته الموضوعية، وقيمه الفنية وسط متغيرات العصرالصعبة، وظروفه السياسية والثقافية والاقتصادية التي أحاطت به،وبرزت قدرة الشعراء على أداء رسالتهم الأدبية وتوظيفها بشكل فني في رسم ملامح العصر، وظواهره الحيوية المختلفة.

ولعل هذه الدراسة التي عرضت للشعر في مكة والمدينة في القرنين السابع والثامن الهجريين قد كشفت صفحة منسية من الأدب في هاتين المدينتين المقدستين غفل عنها الباحثون، لغموضها وصعوبة الاهتداء إلى المادة الشعرية فيها، وما اكتنف حياة الشعراء من اندثار لأخبارهم، وضياع لكثير من آثارهم الأدبية، مع الأمل أن ينفتح المجال لدارسي الأدب العربي للتوسع في دراسة الظواهر والأعلام دراسة موسعة بعد أن وضحت أبعاد تلك الظواهر، ومعالم حياة الشعراء، وملامح شعرهم الفنية.

وقدمت هذه الرسالة إلى قسم الأدب في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في عام ١٤٢٣هـ بإشراف أ.د. أحمد حافظ الحكمي، وتألفت اللجنة من الدكتور محمد عبدالله العشي مناقشا داخليا، والدكتور محمد العيد الخطراوي مناقشا خارجيا، ومنحت اللجنة الباحث درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى. ■